الفصل الخامس

الخصماد

ما كاد الملك يُتمُّ كلامهُ حتى ظهر في باب المخدع شاب في اثواب الفرسان، جميل الصورة حسن الرواء، فتقدم الى الملك وانحنى له قائلاً

– اشفق يا ذا الجلالة!

فذعر هنري ونظر في وجه الشاب ثم قال باشاً – لم اكن أتوقع قدومك يا طوماس سيمور في هذا الوقت، فمتى عدتَ من ميدان القتال وكيف بادرتني بالتماس الشفقة وانت لا تعلم شيئاً مما جرى؟

فقال الشاب – عدتُ يا موي بعد ان انتصرتُ انتصاراً باهراً على الشوتلانديين وأسرتُ منهم اربعة مراكب حربية، فجئتُ اقدمها لسيدي وملكي هديةً جميلةً في يوم عرسهِ. ولما وصلتُ الى هنا وسمعتُ حكمك شعرتُ بما لم يشعر بهِ هؤلاء الحضور الكرام، فبادرتُ اليك أسألكَ الرحمة والشفقة

فقال الملك – وهل عرفتَ الشخص الذي تسأل لهُ الرحمة؟

فنظر طوماس بازدراء الى الحاضرين ثم قال للملك – نعم عرفتهُ بمجال دخولي الى هنا.. عرفتُ ان الشخص الذي تعرَّض لسخطك هو هذه الفتاة الواقفة هنا منفردةً وقد ابتعد عنها الجميع كأنها موبوءة.. وهذه هي العادة المتَّبعة في بلاطك يا سيدي الملك، فمتى رأى رجالك نفورك من احد نفروا هم ايضاً منهُ وتركوه في بلواه دون ان يظهر احد منهم ولو قليلاً من الحمية والمروءة

فقال الملك متبسماً – انت جريء يا طوماس ولكنك لا تتروى احياناً في ما تقول وتفعل .. فهل عرفت اذا كانت هذه الفتاة تستحق الرحمة والشفقة ؟

قال – يكفي انها امرأة ، فكل امرأة تستحق الشفقة والرحمة ، كما ان كل رجل يجب ان يدافع عنها ليظهر بذلك احترامه لجنس النساء كافةً . وعليه فانا اتوسل اليك ايها الملك ان تشفق على هذه الفتاة

وكانت الملكة تنظر الى الكونت وقلبها يخفق ووجنتاها تتقدان . انها لم ترَ هذا الشاب الجميل قبلاً ، ولكنها ما كادت تبصره الان وتسمع كلامه حتى دبَّت قشعريرة في كل بدنها وتولاها خوف شديد على حياته وعزمت ان تبادر الى نصرته حالما ترى زوجها يريد به شراً

بيدَ ان هنري الثامن كان آنئذٍ اشبه بحيوان ضارٍ تدفعهُ السليقة الى البحث عن الفريسة في حالة الجوع فقط ... فهو قد شبع اليوم لانهُ حرق اربعة « هراطقة » وقتل الكونتة سُمِّرست وحكم بالاعدام على ماري اسكيو ، فلم تظمأ نفسهُ الى ضحية اخرى ينشب فيها مخالبه ، ولذلك لم يبقَ على الكونت طوماس خطر من هذه الجهة وخصوصاً لان الملك كان يحبه لبسالتهِ وإقدامه ومشابهته لاختهِ حنة سيمور (زوجة الملك الثالثة)

وكان طوماس لا يزال واقفاً ينتظر امر الملك بالافراج عن ماري وقد آلى على نفسهِ ان يجازف بحياته في هذا السبيل . فنظر اليهِ الملك بلطف وقال – ليس لي ان انيلك مبتغاك يا طوماس لان العدل يجب ان يجري في مجراه . فهذه الفتاة قد ارتكبت جرماً عظيماً وقد حكمتُ عليها بالاعدام وقُضي الامر . غير اني أستغرب اتهامك هؤلاء الحضور بقلة المروءة

والحمية فهل تظن انهم يحجمون عن التماس العفو عنها لو لم تكن مجرمة ؟

قال – نعم فانا واثق بكل ما قلتهُ تمام الوثوق .. ان شمس رضاك وحنوك قد غابت عن هذه الفتاة السيئة الحظ فالتحفتْ بالظلام وغُضَّت عنها ابصار رجال البلاط كما هي عادتهم في مثل هذه الاحوال

وما كاد طوماس يفرغ من كلامهِ حتى دخل المخدع شاب آخر من الفرسان عليهِ امائر الشرف والنبل . فنظر الى طوماس بخيلاءٍ وقال له – وهمتَ يا ميلورد ، فأنا ايضاً قد أبصرتُ هذه الفتاة . ثم تقدم الى الملك فجثا امامه وقال بصوتٍ عالٍ – وأنا ألتمس منك ايها الملك ان تعفو عن ماري اسكيو

وفي هذه اللحظة ارتفع لغط خفيف بين السيدات وظهر الخوف والذعر في وجه حنة دوغلاس وصيفة الملكة .. غير ان الحضور لم ينتبهوا الى ما حدث لان الابصار والاسماع كانت متجهة كلها الى الملك والنبيلين اللذين أقدما على الدفاع عن الفتاة « المجرمة »

وكان الملك قد قطب جبينه وقال للشاب الجاثي امامه – وانت ايضاً يا هنري غوفارد تلتمس العفو عن هذه الفتاة ؟ ألا يكفي ان يمتاز من رجالي بعدم التبصُّر والروية الكونت طوماس سيمور وحده ؟

فقال هنري وهو ينظر شزراً الى طوماس – اني لا اريد ياذا الجلالة ان يعتقد الكونت طوماس انه اكثر بسالةً ومروءةً من جميع رجال البلاط

فقال طوماس برزانة – اذا كان ما تقوله ايها الكونت صحيحاً فلماذا لم تسبقني الى المدافعة عن هذه الفتاة ؟ .. ولكنك بعد ان رأيتني قد

خاطرت بحياتي في هذا السبيل ، وبعد ان تيقنتَ زوال الخطر ، تبعتني على الاثر – وهذا ، ولا شك ، دليل جديد على شجاعتك الحقيقية

فصعد الدم الى وجه الكونت هنري وقدحت عيناه شرراً فألقى يده على مقبض سيفه وقال – ان الشجاعة قد انحصرت كلها في طوماس سيمور . . .

فقاطعه الملك قائلاً بصوت يتهدج من شدة الغيظ – اصمت فاني لا اريد ان تحوّلا حفلة هذا النهار الى مخاصمة وانتما من اشرف رجال بلاطي . ولذلك فانا آمركما ان تصطلحا حالاً وتصفحا الواحد للاخر ما بدر منهُ الان

فنظر كلٌّ من الكونتين الى الآخر نظرة ازدراء واحتقار . ثم دَنَوا من بعضهما فتصافحا بفتور وكلٌّ منهما يضمر لخصمه الشرّ . ولما فصلا عن بعضهما تقدَّم الكونت هنري الى الملك واخذ يستعطفه ثانيةً ليعفو عن ماري اسكيو

فنظر الملك الى طوماس وسألهُ عما اذا كان هو ايضاً لا يزال مصرّاً على طلبه

فقال طوماس – ما دام الكونت هنري يريد ان يدافع عن ماري اسكيو فانا أتنحَّى جانباً ، لان جلالتك تقول ان هذه الفتاة مجرمة وانها تستوجب العقاب ، فلا يليق بي اذاً ان ادافع عنها واقف في طريق ارادتك

فبهت الملك وأيقن ان العداوة ستزداد اضطراماً بين الكونتين وحزبيهما . ولما كان حزب الكونت هنري كبيراً وفيه اكثر رجال البلاط فقد خشي الملك ان يستفحل امره ويتفاقم شره في البلاد . وكان منذ زمان يرى نمو هذا الحزب ولا يدع فرصة تمرّ دون ان يغتنمها للتنكيل ببعض رجاله او تفريق كلمتهم

وكان اكثر الحضور يعلمون ذلك. فلما رأوا ان طوماس سيمور قد أمسك عن نصرة ماري، وان هنري غوفارد لا يزال ملحاً على الملك بالعفو عنها، أيقنوا بسوء العاقبة. وكانت حنة دوغلاس اكثر الجميع اضطراباً وخوفاً على حياة الكونت هنري من ان تُنال بسوء، ولذلك فقد كانت واقفة تحدّق في وجه الملك كأنها تريد ان تستشفّ ما في قرارة نفسه نحو الكونت. فلما رأت الملك قد قطب جبينه استياء برزت في الحال من بين جمهور السيدات وتقدّمت الى الملك وقالت بثبات جاش — اني باسم جميع النسآء اناشدك ايها الملك ان تشفق على ماري اسكيو .. ان الكونت هنري قد سألك ذلك لان الرجل الشريف نظيره يرى من أقدس واجباته الدفاع عن الضعفاء والمحكوم عليهم ولا سيما اذا كانوا من جنس النسآء فانا عن جميع النسآء أشكر له مروءَتهُ وشهامة عواطفه واضمُّ صوتي الى صوته في طلب العفو

— وانا ايضاً اضمُّ صوتي الى صوتهما — قالت الملكة ذلك وقد نظرت الى الملك نظرة كان لها احسن تأثير في قلبهِ فانفرجت اسرّتهُ وابتسمت شفتاه، وكان ذلك ما شدّد عزيمة الملكة فاستبشرت وقالت — ان هذا اليوم هو عيد الحب، هو عيدي ايها الملك، فلتكن خاتمتهُ رحمةً لا نقمة

فقال الملك بعد ان تأمل قليلاً — ليكن كما تريدون ! اني أعفو عن ماري اسكيو بشرط ان تنكر الان ما قالتهُ منذ هنيهة . فهل انتِ راضية بذلك يا كاترينا ؟

فتمتمت الملكة بحزن قائلةً — اني راضية

قال — وهل ترضى بذلك اللادي حنة والكونت هنري ؟

قالا — نعم

جرى كل هذا الحديث وماري اسكيو واقفة شاخصة ببصرها كأنها من عالَم آخر . فدنت الملكة منها وألقت يدها على كتفها وقالت — اذا كانت الحياة عزيزةً لديكِ فيجب ان تتبعيني وتظهري كل خضوع لامر الملك

ثم قادتها بيدها فأوقفتها امام الملك وقالت — ان ماري اسكيو لشدة ما اصابها من الاضطراب والهلع ولعدم اعتيادها روئية العقوبات الهائلة قد تكلمت بحضرتك يا مولاي كلاماً صادراً عن الحدَّة والغباوة فاصفح لها يا سيدي ما نطقت بهِ شفتاها وتغاضَ عن عدم روّيتها وقلة تبصُّرهـا لانها مستعدة الان ان تنكر ما قالته

وكانت ماري قد انتبهت لدى سماعها كلام الملكة فارتعشت وقالت بانفة وازدراء — يستحيل عليَّ ايتها الملكة ان أنكر حرفاً مما قلته . نعم اني كنتُ مدفوعةً الى ذلك بعوامل الخوف والحزن غير اني لم أنطق الا الحق ، لان اولئك الناس الذين امر الملك بقتلهم هم شهداء قديسون وسينصفهم العدل الالهي ممن ظلمهم وامر باعدامهم

ثم التفتت الى الملك وقالت — انا أعلم ان الكلام الذي قلتهُ سيدفعني الى الهلاك المحتّم ، غير اني مستعدة ان أتحمل في سبيل الحق جميع اصناف العذاب والموت ، وسأنال بعد ذلك اكليل الشهادة البهي في النعيم . واما انت فالويل لك ، لان الشهداء الذين تسفك دماءهم سيصرخون الى الله ضدك ، وسيستجيب الله لهم فيصرف نعمتهُ عنك ولا يستجيب لك في يوم حزنك . . انك تسوق هؤلاء الابرار الى النطع وسائر ضروب العذاب

لانهم يؤمنون بالله ايمانًا مستقيماً ولا يريدون ان يسيروا في سبيل كهنة البعل الذين لا همَّ لهم الا ايغار صدرك باقاويلهم الخبيثة والتنكيب بك الى طرق الضلال والرذيلة

فارتجف الملك من شدة الغيظ غير انه تمالك وقال — وهل انتِ تعتقدين كما يعتقد اولئك الناس الذين حكمتُ عليهم بالاعدام وما هم في نظركِ الأ شهداء قديسون ؟

قالت — نعم

قال — وهل تنكرين سلطتي العليا على الكنيسة ؟

قالت — ان للكنيسة رأسًا واحدًا وهو الله فلا أعترف بسواه

فالتفت الملك الى الاسقف غاردنر وقال — باسم الشريعة آمرك ان تلقي القبض على هذه الفتاة الهرطوقية وتأخذها الى المحكمة الروحية لتحكم عليها بما يستحقهُ تجديفها

فتقدم الاسقف غاردنر ووضع يده على كتف ماري اسكيو وقال — اني باسم الشريعة الالهية ألقي القبض عليكِ

ثم جاء لورد بوظيفة «القاضي الاعلى» ومعه شرذمة من الجنود فاستلموا ماري وساقوها الى حيث امر الاسقف . وسارت هذه الفتاة بين تلك الجموع بوجه يتهلل بشرًا وسرورًا كأنها ذاهبة الى مأدبة فاخرة وليس الى الموت

ولما سكنت الحركة أجال الملك نظره في وجوه الحاضرين وقال — قد انقضى العيد ، ولم يبقَ من الليل الا ساعتان ، فيجب ان يذهب كلٌّ الى مأواه ليأخذ نصيبهُ من الراحة

فأخذ الحضور يحيّون الملك والملكة ويخرجون وهم بين آسفٍ لحال ماري وشامتٍ بما نالها . ولما جاءَت نوبة الاسقف كرانمر وانحنى امام الملكة ليودعها قال لها بصوت لم يسمعهُ احد سواها : « لا تنسي البرنسة اليصابات ! »

الفصل السادس

الشفاعة

ولما خرج الجميع ، ولم يبقَ في المخدع الأ الملك والملكة ، تنفس الملك الصعداء وقال — لننسَ الان كل ما جرى ايتها الحبيبة ، الا امراً واحداً — وهو اني احبكِ وانكِ تحبينني . ولما قال ذلك طوّق خصرها بذراعيه وقبلها في جبينها

وكانت الملكة ساكنة جامدة ، لا تدري ما تقول ، ولا تعلم كيف تفاتح زوجها في الامر الذي ذكَّرها بهِ الاسقف كرانمر

وعاد الملك الى حديثهِ فقال — انا أعلم ما سبب سكوتكِ وانقباضكِ . انكِ ناقمةٌ عليَّ لاني لم أقم بانفاذ رغبتكِ في العفو عن ماري اسكيو ، غير ان ذلك كان من المستحيلات ، لانها مجرمة وما انا ممن يصفح للمجرمين . تلك هي القاعدة الذهبية التي سرتُ عليها والتي ينبغي لكل ملك ان يتخذها شعاراً لسلطتهِ ودعامةً لعرشهِ ، لان الملك الحقيقي هو الظالم المستبدّ الذي يسوق رعيته بعصا القسوة والقوة . هذا الملك تهابهُ الرعية وتنقاد له صاغرةً . واما الملك الشفيق الرحوم فهو جبان ضعيف لا تلبث الرعية

ان تحتقره وتقلب عرشهُ . . انظري اليَّ يا كاترينا فقد طعنتُ في السن بعد ان حكمتُ دهراً طويلاً ، والرعية لا تزال ترتعش من مجرد ذكر اسمي . وما سبب ذلك الأ لاني أعدمتُ من رعاياي اكثر من مئتي مجرم ، وهذا كافٍ لان يلقي الرعب في قلوب الجميع

فألقت الملكة رأسها الى صدر الملك وشخصت ببصرها الى وجهه وقالت — قلتَ لي الان انك تحبني ومع هذا اراك تحدثني عن المجرمين والاعدام !

فضحك الملك وقال — أصبتِ يا عزيزتي ، وما ساقني الى هذا الموضوع الا حادثة هذه الليلة ، وقد تذكرت اني وعدتكِ بانفاذ ما تطلبينهُ مني ، وحنثتُ بوعدي للسبب الذي ذكرتهُ الان . وعليهِ فانا أسألك ثانيةً ان تقترحي عليَّ شيئاً اقضيه في الحال . فافتكري ملياً واذكري لي حاجة تسرّين بقضائها

فتبسمت الملكة وقالت — انك قد أهديتني من الحلى والجواهر ما لا تطمع نفسي في المزيد منه . . ولو أهديتني قصراً جميلاً على شاطىء البحر فيكون ذلك بمثابة طردي من قصر ويتغول هذا وحرماني قربك . . ولذلك فانا لا اريد ان تهديني قصراً ولا حلى او جواهر ، لاني انما اريد ان احيا لك وسعادتي بقربك وانت زينتي وحلاي

فتهلل وجه الملك غبطةً وسروراً وقال — لله درّكِ يا كاترينا ما أشرف نفسك وأسمى عواطفك ، وثقي باني لن أنسى هذه الكلمات العذبة ، وهي ستكون لكِ سلاحاً تصدُّ عنكِ وشايات حسَّادكِ ومبغضيكِ اذا راموا ان يوغروا صدري عليكِ كما هو شأن اكثر رجال البلاط . . واذا كنت لا تميلين الى المزيد من الجواهر فلعلكِ تريدين ان تطلبي مني رأساً بشرياً

قالت — نعم، هذا ما اطلبهُ منك ايها الملك

قال — اذكري لي اسم مَن تريدين من اعدائكِ لآمر بفصل رأسه عن جثتهِ في الحال وتقديم هذا الرأس اليكِ على طبق من ذهب

قالت — نعم اني اطلب منك رأساً بشرياً، ولكني لا اريد ان يسقط هذا الرأس، بل ان يحيا ويرتفع.. اريد ان تعيد يا مولاي الحياة والحرية والسعادة لشخص انت اولى من كل انسان بالاهتمام به وإسعاده. وهذا الشخص هو البرنسة اليصابات ابنة جلالتك المُبعدَة عنك الان. فانا اريد بل أتضرع اليك ان تردَّها الى هنا لتعيش بازائي في كنفك كما يليق بابنة هنري الثامن وولية عهده.. لقد كانت البرنسة اليصابات بالامس أرفع مني منزلةً وأعلى شأناً، اما الان فقد شاءت ارادتك ان تشرّفني وتجعلني فوق جميع النسآء رتبةً ومكانةً، وصار يحقُّ لي، وخصوصاً بعد وعدك اياي بانفاذ اول طلب أسألك قضاءه، ان تعفو عن البرنسة اليصابات وتأمر باعادتها الى هنا(١)

فلما سمع الملك ذلك اطرق مفكراً كمن يحارب افكاره فيما يصمّم عليه. ولم يلبث ان انحدرت دمعتان من عينيهِ، وظهرت على وجههِ علائم

(١) وُلدت البرنسة اليصابات سنة ١٥٣٣، ووالدتها حنة بولين الزوجة الثانية من زوجات الملك هنري الثامن. وفي سنة ١٥٣٤ سُمِّيت رسمياً «ولية عهد ملك انكلترا». وفي سنة ١٥٣٧ جُرّدت من ولاية العهد وأُعلن انها ابنة غير شرعية للملك، وأبعدت بعد ذلك من قصر والدها. غير ان حقوقها في ولاية العهد قد رُدَّت اليها سنة ١٥٤٤. وفي سنة ١٥٥٧ تُوّجت اليصابات ملكةً على انكلترا، وقد وصلت البلاد في ايامها الى أعلى درجات المجد والفخار. وقضت هذه الملكة العظيمة حياتها بطولها عذرآء، ثم توفيت وهي في سن السبعين من عمرها

الرقة والحنوّ ، فأخذ يد الملكة وأدناها من شفتيهِ وقال — اني سعيد جداً بكِ يا كاترينا ، فانتِ هي المرأة الوحيدة التي رأيتها في حياتي بهذه المروءة السامية والعواطف الشريفة ، وقد عظمتِ الان جداً في عيني لانكِ لم تهتمي بالاشياء المادية والجواهر الكاذبة ، بل انصرفتِ الى أسمى جواهر الاداب والشرف ، وبها زيّنتِ نفسكِ وفقتِ على جميع نسآء عصركِ ، وظهرتِ بأحسن مظاهر الجرأة والبسالة التي يندر ان تُوسَم بها امرأة غيركِ.. اجل فانتِ في ليلة واحدة قد التمستِ مني ان أعفو عن فتاتين ، احداهما مجرمة ، والاخرى مقصيّة من هذا القصر . وقد كان طلبك بتمام الجرأة والاخلاص ، واما غيركِ فاذا التمس شيئاً فانما يلتمسهُ بمنتهى الضراعة والتذلل والمسكنة . ولو كانت الرعية كلها نظيركِ لكنتُ اكثر رأفةً بها والطف معاملةً لها ، غير انها لم تبلغ بعد المقام اللائق بأُمّة حرّة ، ولذلك اراني مضطراً الى معاملتها بكل غلظة وقسوة . واما انت فلا يجاريكِ احد من هذه الرعية . انت تعلمين اني قد طردتُ ابنتي اليصابات من قصري وأقصيتها من قلبي الى الابد ، ومع ذلك فانت لم تبالي بشيءٍ من هذا بل أقبلت عليَّ بجرأة نادرة تذكرينني بها باسلوبكِ اللطيف وتسألينني العفو عنها وإعادتها الى سموّ مقامها . فشكراً لكِ ايتها الحسنآء لانكِ قد أثّرتِ في قلبي تأثيراً لا تستطيع ان تؤثره انثى غيركِ . فستعود اليصابات الى هنا حسب طلبكِ ، وسأردُّ اليها جميع حقوقها اكراماً لكِ . ولا اكتمك ايتها الحبيبة ان نفسي مشتاقة منذ زمان الى ابنتي اليصابات ، غير اني لم اشأ ارجاعها الى بلاطي لئلاً أُوسَم عند رجالي بالجبن وضعف الارادة . وكنتُ اودُّ ان اضمّها اليَّ لاكفِّر عما جنيتهُ على والدتها المسكينة التي لا

تبرح صورتها من مخيلتي وطالما آلمتني ذكراها ، غير اني لم أفعل شيئاً من هذا لئلاَّ يصفني الناس بالندامة . ولم أسمع من احد من رجالي كلمةً في هذا الشان لانهم لا يعرفون الاَّ المداهنة والتمليق ، وقد جُرّدت نفوسهم وقلوبهم من كل مروءة وعاطفة بشرية . واما انتِ فقد قرأت فوراً اعماق قلبي وبادرتِني بمثل هذه العاطفة الكريمة

ولما فرغ الملك من الكلام قبَّل الملكة في وجنتها وقال – هذه القبلة يطبعها على وجنتكِ الاب الشكور . ثم قبلها في وجنتها الاخرى وقال – وهذه يطبعها الزوج المحب يا ملكتي الجميلة



الفصل السابع

هنري الثامن وزوجاته

ساد السكون بعد تلك الحوادث في ارجاء قصر ويتغول ، كما ساد في كل انحاء لندن ، وأُتيح لرعايا الملك هنري الثامن ان يقضوا بضع ساعات ظلام الليل في الراحة والسكينة ، آمنين طوارق الحدثان ، لان الملك هنري وجواسيسه وجلاَّديه كانوا آنئذٍ راقدين في اسرّتهم ، غافلين عن تتبُّع الجرائم او اختراع الاسباب لإرواء ظمأ نفوسهم ، وما كانت تلك «الجرائم» على كثرتها الا لتزيدهم توغلاً في المعاصي والمنكرات وتفنناً في انواع الفظائع والموبقات

غير ان مخدعاً ، من مخادع القصر القريبة من مخدع الملكة ، كان لا يزال مُناراً – فالظاهر ان صاحبهُ كان لا يزال الى ذلك الوقت مستيقظاً ،

ولعلّ افكاراً كثيرة وهواجس مختلفة كانت قد انتابتهُ فأرَّقتهُ وطردت النوم من عينيهِ

هذا المخدع كان للّادي حنة دوغلاس وصيفة الملكة ، تلك الفتاة الجميلة التي رأيناها في هذا الليل تدافع مدافعة الابطال عن الكونت هنري غوفارد . اما تعيينها وصيفةً للملكة ، بعد الذي رأيناه من اضمار الشر لها ، فقد كان بسعي الاسقف غاردنر اكبر جواسيس الملك واكثرهم ارتياحاً الى القبض على المجرمين وخطف ارواحهم

وقد علمنا مما مرَّ ان حنة دوغلاس كانت صديقة للملكة كاترينا بار قبل ارتقائها الى العرش الملوكي ببضعة اعوام ، وكانت الاثنتان ساكنتين في مدينة دوبلين ، وكانت كاترينا تحب حنة محبةً تفوق كل وصف ، ولما فصلت عنها منذ اربعة اعوام لم تعد تعرف شيئاً من احوالها . فقد لبثت حنة في دوبلين وكان بعض رجال الدين من اصدقاء والدها اللورد دوغلاس قد رأوا فيها الكفاءة لاتخاذها آلةً لادراك اغراضهم ومقاصدهم ، فتولّوا تربيتها على ما يلائم افكارهم وغرسوا في رأسها ما شاءوا من التعاليم والعقائد ، فشبَّت الفتاة غريبة الاطوار حاذقة في كل اسلوب من اساليب المكر والدهاء والرياء ، وقد مات ضميرها واصبحت قاسية شريرة تسرّ باهلاك الغير اذا كان في ذلك ما يفيدها او يخدم آراء اساتذتها ، ولو كان هذا الغير اعزَّ اصدقائها ومريديها . وقد تعلَّمت قاعدة « الغاية تبرّر الواسطة » فصارت اذا رامت قضاء شيءٍ من الاوطار يهون عليها استخدام كل واسطة ولو كانت من المحرَّمات والفظائع

ولما ارتقت كاترينا الى عرش ملوك انكلترا ذكَّرها الاسقف غاردنر

بصديقتها حنة وسعى لديها في تعيينها وصيفةً لها . فسرّت الملكة وما عتمت ان استدعتها وجعلتها الوصيفة الاولى لها ، وهي لا تعلم انها قد ضمّت الى نفسها حيةً خبيثة ستحاول ان تنفث سمومها في نفس صديقتها الملكة لتقلبها عن العرش او لتميتها شرّ الميتات

*

كانت حنة دوغلاس جالسة في مخدعها في اواخر ذلك الليل ، وقد استعصى عليها النوم ، وجعل يتنقل بها سيّال الفكر من مكان الى آخر ، وقد مرّت امامها حوادث تلك الليلة مرور الصور المتحركة ، وهي كلما نزلت برأسها فكرة ادركتها على الاثر اختها ، الى ان قامت في مخيلتها صورة الكونت هنري غوفارد ، فتنهدت من كبد حرّى وقالت في نفسها : « وهل عرفني الكونت ؟ .. هل عرف اني هائمة به من اول يوم رأيتهُ في دوبلين في قصر الملك ؟ .. لا لا انهُ لم يحفل بي وقتئذٍ لان افكاره كلها كانت منصرفة الى زوجتهِ الفتانة .. اما انا فقد احببتهُ الى درجة العبادة مع اعترافي بان ذلك حب أثيم ، لانه كان متزوجاً .. غير ان الاسقف غاردنر قد شاء ان يكرّس قلبي لخدمة الله والكنيسة من جهة اخرى . هو اراد ان يزفني الى الملك وكادت تنجح مساعيه نجاحاً باهراً ، ولما دُعيتُ الى هنا لمقابلة الملك سبقتني الى ذلك هذه الملعونة كاترينا بار فهدمت صروح آمالي ونالت هي حظوةً في عيني الملك بدلاً مني ، فلأنتقمنَّ منها شرّ انتقام لاني أولى منها بهذه المكانة الرفيعة .. نعم نعم ان كاترينا بار لا تستحق ان تكون ملكة انكلترا ، فيجب ان تموت هي لأحيا انا .. »

وما كادت حنة تصل بافكارها الى هذا الحد حتى سمعت قرعاً خفيفاً

على باب مخدعها فذعرت ولكنها لم تلبث ان اطمأنت نفسها لعلمها بان القادم هو ابوها . فقامت وفتحت له الباب ، فدخل وقبلها في جبينها وهو يقول — يظهر لي انكِ كنتِ بانتظاري يا بنيتي العزيزة

قالت — نعم وقد انتظرت قدومك لنتأمل معًا في حوادث هذه الليلة ونرتب ما يجب صنعهُ في الايام المقبلة

فجلس الكونت دوغلاس على مقعد بازآء ابنته وقال لها — وهل يمكننا ان نتكلم هنا بمعزل عن كل رقيب ؟

قالت — نعم لان خادماتي ينمنَ في الغرفة الرابعة وقد اقفلت الابواب التي تؤدي الى هذه الغرفة بيدي ولم يبقَ الاَّ باب الدهليز الذي جئتَ منهُ انت الان فيجبُ ان اقفلهُ ايضًا لئلا يباغتنا احد في هذه الخلوة

ثم أسرعت فأقفلت الباب وعادت فجلست الى جانب والدها وقالت — الان نحن في مأمن من الرقبآء

قال — وهذه الجدران يا ابنتي ? أواثقةٌ انتِ بانها لا تسمعنا ؟

فضحكت حنة ولم تجب

فقال ابوها — انكِ طفلة بعد ولا تريدين ان تعرفي ان للجدران آذانًا وعيونًا تسمع وتبصر احيانًا كل شيء ، والعاقل مَن يحسب لكل امر حسابًا . وقد كرَّرتُ على سمعك قولاً لاحد الحكماء وهو «ينبغي للانسان البصير ان يشك في كل شيء ولا يثق الاَّ بالذي يتحققهُ بعينيه » فلا تثقي والحالة هذه بالناس ، وكذلك لا تثقي بالجدران فقد تتضمن ورآء سطحها الاملس رقيبًا او واشيًا . . غير اني موقن بعدم وجود احد ورآء جدران هذه الغرفة لاني تحققتُ ذلك بنفسي في ما مضى من الاعوام يوم كنتُ شابًا جميلاً

وكانت علائق الود محكمة العرى فيما بيني وبين اخت الملك هنري قبل اقترانها بملك شوتلاندا ، فكنت أخلو بها في هذه الغرفة ونقطع الاوقات معا في اشهى الاحاديث واطيب المسامرات . وماذا احدثك يا عزيزتي عن تلك الايام الجميلة و . . .

فقاطعته حنة بتذمر — ولكنك جئتَ يا ابي في مثل هذا الهزيع من الليل ليس لتحدثني عن ايام شبابك ووقائع غرامك مما سمعتُه منك منذ زمان ، بل ان لمجيئك الان معنىً آخر ارجو ان لا يبرح من بالك اذ ليس لنا الى بزوغ الفجر الا وقت قصير

قال — لقد أصبتِ كبد الحقيقة فاعذريني يا عزيزتي فقد شختُ وكثر هذياني وضعفت ذاكرتي . نعم اني جئتُ الان لنتحدث عن الحاضر والمستقبل وندع الماضي وشأنه . . ولقد رأيتُ اليوم كثيراً وسمعتُ كثيراً وكانت نتيجة مراقبتي وتحقيقي انكِ ستكونين الزوجة السابعة للملك

قالت — قلتَ لي ذلك منذ زمان فارشدني الان الى السبيل الذي يؤدي بي الى ادراك هذه الامنية

قال — يجب عليكِ ان تكوني شديدة الانتباه الى كل شيء ، وان تدرسي الاحوال الحاضرة درساً مدققاً ، وتلبسي لكل حالة لبوسها ، وعلى الاخص يجب ان تراقبي الملك من جميع الوجوه ، وتطلعي على تاريخ زواجه بنسائه واحدةً واحدةً . . فهل درستِ شيئاً من ذلك ؟

قالت — لا أعرف الا شيئاً يسيراً من اطوار الملك وتاريخ زواجه ، لان كل هذه الامور العالمية لم تكن تهمني . فقد وقفتُ نفسي منذ الصغر لخدمة الكنيسة والتعبد لله ، ولو سمعتُ للصوت الداخلي الذي كان

هذا الزواج لقوانين الكنيسة ، لان كاترينا اراغون كانت كما تعلمين زوجة اخيه . ولكن هل تعرفين حقيقة سرّ إعراض الملك عنها ورغبته في طلاقها ؟

قالت – لانه أحبّ اللادي حنة بولين

قال – بالصواب نطقتِ لان الملكة كانت وقتئذٍ قد شاخت والملك لا يزال كأنه في عنفوان شبابه . ولما كان لم يتعوَّد سفك الدمآء بعد وكان قد تحقق ان البابا لن يوافق على هذا الطلاق أعلن مناوأته للبابا وانحرف عن جادة الايمان الحقيقي ودعا نفسه رئيساً للكنيسة وأعلن عدم قانونية زواجه بكاترينا اراغون وسمَّى ابنتهُ منها (البرنسة ماريا) ابنةً غير شرعية ، ثم طلَّقها فصارت تُدعى ارملة برنس ويلس ، وحظر على رعاياه تلقيبها بالالقاب الملوكية وتقديم شعائر الاعتبار لها كملكة . وهكذا عوملت هذه الملكة بعد نزولها عن العرش الذي قضت عليه سبع عشرة سنة

فتنهدت حنة دوغلاس وقالت – ذلك منتهى القساوة وغلاظة الكبد يا والدي !

قال – هو ما تقولين يا عزيزتي غير اني أُريد ان تفهمي ان الملك لم يعامل زوجتهُ بمثل هذه المعاملة الا بعد ان رأى مقاومة البابا له ، فهاجهُ ذلك وفعل ما فعل ، فهو لا يريد ان يُقاوَم بشيء او تُقهَر ارادته بشيء . فاحفظي هذا وتظاهري على الدوام بالاغضآء عندما تشعرين بان الملك ينظر اليكِ خلسة ، فاذا تكرَّر مثل ذلك منه ومنكِ فحينئذٍ يشعر هو بدافع الى محبتكِ والاستيلآء عليكِ ويكون ذلك بدء عظمتك وارتفاعك وبدء تقهقر كاترينا بار وسقوطها ، فترتقين انتِ عرش المملكة وتنحدر هي عنه ويصير اسمها بعد ذلك ارملة اللورد نفيل كما كان قبلاً او يأمر الملك

بضرب عنقها بغية التخلص منها حالاً

قالت — وماذا فعل الملك بعد إبعاد زوجته الاولى ؟

قال — اقترن بحنة بولين وكانت رائعة الحسن ، فولدت له البرنسة اليصابات وكان ذلك مدعاةً لزيادة حب الملك لها ، وكنتُ اسمعه يقول انه بلغ قمة السعادة والغبطة بازآء هذه الملكة الجميلة . غير ان ذلك لم يطل لان هنري الثامن تحقق بعد حين ان حنة بولين لم تكن أجمل نسآء العالم كما كان يظن وان بين نسآء القصر مَن تفوقها حسناً وكمالاً . وذلك انه رأى حنة سيمور فهام بها ونفر قلبه من حنة بولين وعزم على إبعادها ، واخذ يفكر في اقرب الطرق لذلك ، فرأى إن طلاقها قد يكون مجلبةً للتقولات ولذلك عزم على قتلها وشرع في استنباط الاسباب القانونية ليكون حكمه عادلاً . وساعده في ذلك بعض اخصائه من رجال البلاط فأشاعوا ان حنة بولين قد خانت الملك وأحبت اربعة رجال ، فحكم الملك اولاً عليهم بالاعدام ولما رقوا النطع حلف ثلاثة منهم بانهم لم يكلموا الملكة ولم يسمعوا صوتها . واما الرابع وهو جمس سميتون الموسيقي فقد وعده اعوان الملك بالعفو عنه ورفع منزلته اذا هو اعترف بحب الملكة له وهكذا كان . فحكم الملك على زوجته بالاعدام ، ولكنهم قتلوا قبلها جمس المذكور خوفاً من افتضاح السر . وفي اليوم المضروب لانفاذ الحكم في حنة بولين الجميلة خرج الملك بحاشيته الى الصيد والقنص وكان متهللاً مسروراً وقد اكثر من المزاح والمداعبة الى ان سمع دوي مدفع ، وكان ذلك علامة على سقوط رأس حنة بولين ، فتبسم وقال : « قد تمَّ . . فأطلقوا الكلاب وهيا بنا لمواصلة الصيد ومطاردة الخنازير البرية » . بهذه الكلمات رثى الملك زوجته

الجميلة البريئة . .

قالت — اراك آسفاً على حنة بولين يا والدي مع انها قد كانت عدوة الدين القويم ومن اشدّ المخلصين للتعليم الجديد

قال — ولكنها خدمتنا من حيث لا تدري، لانها كانت سبباً لاعدام طوماس موروس العالِم الشهير فانتقم الله منها . وتحرير الخبر ان طوماس المذكور لم يستصوب اقتران حنة بولين بالملك ولم يعترف لهُ برئاسة الكنيسة ، فغضب الملك عليه ولكنه لم يجسر ان ينشب فيه مخالب انتقامه لِما كان لطوماس عنده من المنزلة الرفيعة والاحترام العظيم لعلمه وغزارة فضله . اما الملكة فلم تصفح له عدم رضاه بزواجها ، وما زالت توغر صدر الملك عليه حتى امر باعدامه ، وقد اسفت لذلك انكلترا باسرها . وكنا نحن في يوم انفاذ الحكم مجتمعين في الردهة الكبيرة مسرورين محبورين، وقد قضينا الوقت في الرقص واللهو واللعب الى ان جاء احد الضباط واخبرنا بمقتل طوماس موروس ، ووصف حالته في الدقائق الاخيرة من حياته . وكنتُ آنئذٍ جالساً الى مائدة واحدة مع الملك نلعب في الورق وقد خسَّرته بضعة جنيهات . فلما سمع حديث الضابط طرح الورق من يديه وهو يلتهب من الغيظ والحنق ثم ألقى على الملكة نظراً وحشياً وقال بصوت لم يسمعه احد سواي « انتِ علة موته فلأنتقمنَّ منكِ شر انتقام » ونهض بعد ذلك فدخل مخدعه ولم يجسر احد ان يتبعه الى هناك حتى الملكة نفسها . وعلى هذه الصورة ترين ان حنة بولين تستحق شكرنا لان موت طوماس موروس انقذ انكلترا من خطر عظيم، فان مِلانختون وبوتسر وغيرهما من مشاهير انصار المذهب البروتستاني كانوا عازمين على المجيء

الى بلادنا كنواب من قبل ملوك جرمانيا ليعرضوا على الملك هنري قبول هذا المذهب واعترافهم بزعامته لهم وله . فلما بلغهم خبر اعدام طوماس خافوا وعادوا من نصف الطريق . وبعد حنة بولين اقترن الملك بجنة سيمور

قالت — نعم وهذه كان يحبهـا الملك وقد حزن بعد وفاتها ولبس عليها الحداد

فقهقه الكونت دوغلاس وقال — انه كان يبكي كل واحدة من زوجاته ويلبس عليهن الحداد غير ان ذلك في الظاهر فقط

قالت — وفي الباطن ايضـاً لان الملك بعد وفاة حنة سيمور لبث سنتين أيّماً

فضحك دوغلاس وقال — صحيح هذا ولكنه في تلك المدة كان هائماً بحب مركيزة فرنساوية اسمها مونتريل وقد عرض عليها امر الاقتران بها فرفضت وعادت الى فرنسا لانها خشيت ان تُرغم على الهبوط من العرش ويكون نصيبها الاعدام او الطرد كنصيب مَن سبقها من الملكات

قالت — الأ حنة سيمور فانهـا ماتت موتاً طبيعياً

قال — لا تصدقي ذلك فانها ماتت على اثر الولادة وكان في استطاعة الملك ان يحفظ حياتها غير انه لم يفعل ذلك وقـال للاطبآء الذين كانوا يعالجونها « انقذوا حياة الطفل ولا بأس من موت والدته لاني أستطيع ان اجد لنفسي زوجات بقدر مـا اشتهي » . هذه هي خاتمة حياة حنة سيمور فلا أراكِ الله مثلها . . وبعد انقضآء مدة « الحداد » رأى الملك صورة البرنسة حنة كليفسك الالمانية فأعجبته الصورة وبعث برسله الى المانيـا ليأتوه بصاحبتها ، وسافر هو الى روتشستر لاستقبالها ، ولكنه ما كاد يقع

بصره عليها حتى اصابه ذهول شديد لانها كانت قبيحة الصورة للغاية، غير ان الملك اعلن ارتباطه بها بسنة الزواج بالظاهر فقط ثم آخاها ووهبها قصرًا في ريتشموند، ولم يلبث ان اختار كاترينا غوفارد زوجةً خامسةً

وكانت هذه الملكة فتّانة الجمال وقد كلف الملك بحبها وآثرها على جميع من سبقها من الملكات ولما عُقد له عليها جثا في الكنيسة على ركبتيه وشكر الله بصوت جهوري امام الشعب لانه وهبه مثل هذه السعادة الغير المنتظرة . غير ان ذلك لم يطل امده ففي صباح اليوم التالي اتُّهمت الملكة بالخيانة وسيقت الى السجن لان الملك عرف انها أحبت سبعة رجال قبل ان اقترنت به، ولما اطلع على هذه التفاصيل بكى كطفل ولكنه لم يبطىء ان امر باعدامها . وقضى بعد ذلك سنتين وهو يبحث عن زوجة جديدة الى ان وقع اختياره على كاترينا بار الحالية ولكنه لا يلبث ان يلحقها بمن سبقها لان هذا الاسم « كاترينا » في بلاط الملك قد اصبح شوءمًا على صاحبته، فقد أبعد الملك كاترينا الاولى من هذه « الكاترينات » وقتل الثانية ولا يلبث ان يلحق بهما الثالثة

فتبسمت اللادي حنة وقالت — ان كاترينا باريا والدي لا تحب الملك وقد اعترفت لي بذلك فهي تفضل ان تكون اختًا للملك لا زوجةً له

فقال الكونت — فهي اذًا تحب غيره

قالت — ولا غيره ايضًا لان قلبها اشبه برقعة بيضآء لم يُكتَب عليها اسم احد من الرجال

قال — ينبغي لنا اذًا ان نكتب فيه اسمًا ليكون سببًا لاعدامها او طردها . وهذا من واجباتكِ انتِ يا عزيزتي ان تكتبي في قلبها اسمًا

يستطيع الملك ان يقرأه بسهولة ويكون لكِ من وراء ذلك ما تبتغين

الفصل الثامن

الاب وابنته

وساد السكوت حيناً والكونت دوغلاس وابنته جالسان يتأملان، وقد امعنت اللادي حنة في عالَم الخيال، فألقى الكونت يده على كتفها وقال – أراكِ تتأملين طويلاً فما الذي يشغل افكاركِ الان؟

قالت – اني افتكر بالغاية التي ترمي اليها من كل ذلك ولا ادري ما هي المنفعة التي قصدتها من اطلاعي على تاريخ زوجات الملك

فهزَّ اللورد دوغلاس رأسه وقال – ذلك لاني معتقد تمام الاعتقاد بانكِ ستصيرين زوجةً للملك، فينبغي لكِ والحالة هذه ان تدرسي جميع اطواره ومعاملاته لزوجاته وتختبريه حق الاختبار لتضمني لنفسكِ حياةً سعيدةً بازاء مثل هذا الزوج السيء الظن والكثير التقلب. انا أعلم ان لكِ من ثقوب الفطنة وسموّ الادراك ومحبة الفخر والدين ما يضمن ثبوت التاج الملوكي على رأسك دهرًا طويلاً ولكن لا تنسي ان سيف الانتقام مصلت فوق رأسكِ على الدوام فيجب ان تعوّدي نفسكِ محبة الملك فقط ومتى تمَّ لكِ ذلك يجب ان تحافظي على هذه المحبة وتظهري امامه كل يوم بمظهر جديد جميل ليرى فيكِ على الدوام ما يستميل قلبه اليكِ. واعلمي ايتها العزيزة ان الملك بحال انفصاله عن البابا واستقلاله برئاسة الكنيسة لم يعد يعترف بمذهب من المذاهب، فهو اليوم هرطوقي يتظاهر

بالاصلاح ويحسب طقوس الكنيسة قشورًا لا بد من هجرها، وغدا كاثوليكي متدين يسعى في سبيل الصلاح بالمحبة والتقوى . ولو وافق البابا على طلاق كاترينا اراغون دون ان يسعى لاقامة العراقيل والمشاكل تجاه ذلك لبقي الملك امينًا في خدمته للكنيسة الكاثوليكية، غير ان البابا لم يظهر اقل تساهل في هذا الامر، فهاج هنري الثامن وانحاز الى اصحاب المذهب الجديد لا عن اعتقاد بصحته بل لمناوأة البابا وقطع كل علاقة معه. غير انه لم يستطع ان يكون في جانب اصحاب المذهب الجديد تمامًا ولا ان يبقى في حضن الكنيسة الكاثوليكية كما كان اولاً، فليس هو كاثوليكيًا ولكنه يحضر اوقات الصلاة في اكثر الاحيان، وقد ابطل الاديار ولكنه حظر على الكهنة الزواج . وفعل غير ذلك من المتضادات

قالت — ولذلك فالبابا بعدل قد دعاه جاحدًا وأعلن عدم اهليته للعرش الملوكي ووعد هذا العرش لمن يتغلب عليه بقوة السلاح وحظر على الرعايا الاعتراف بهنري الثامن والخضوع له

قال — غير انه بالرغم عن هذا الحرم البابوي الهائل لا يزال ملكًا والرعية تخضع له خضوع العبيد لسيدهم وهو يزداد استبدادًا برعيتهِ ونفوذًا في البلاد بينا نرى البابا يزداد نفوذه تقلصًا وقوته انحلالاً . وعليه ينبغي لنا ان نسعى جهدنا لاعادة هذا الملك الى احضان الكنيسة المقدسة ليعود سلطان البابا الى ما كان سابقًا . . ان هنري الثامن لا يريد ان يكون كاثوليكيًا ولا بروتستانيًا ولذلك ترينه يضطهد رجال المذهبين معًا، فاذا أمر بشنق بضعة رجال من الكاثوليك نراه في الوقت نفسه قد امر باحراق ما يساويهم عددًا من البروتستان، واذا امر بالقاء القبض على رجل